انفجار

مجموعة قصصية

اسم الكتاب: انفجار
اسم المؤلف: محمود السيرة
التصنيف: مجموعة قصصية
الحجم: 14 - 20
عدد الصفحات: 66
سنة الإصدار: 2024
رقم الإيداع: 29476 / 2024
الترقيم الدولي: 2 – 066 – 971 – 977 - 978
تدقيق لغوي: فاطمة الزهراء حمدي
تصميم غلاف: رحاب عبدالله
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

انفجار

مجموعة قصصية

محمود السيرة

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

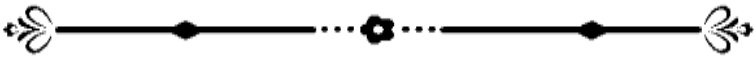

إهداء

بكل الحب.. أهدى عملي

وباكورة كتاباتي القصصية

إلى كل من سار بجد على درب حلمه

حتى يبلغ ما يطمح ويقدره له الله.

محمود أحمد إبراهيم علي

(محمود السيرة)

****

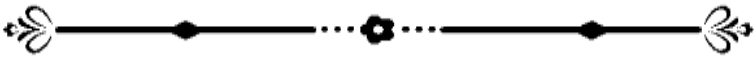

انفجار

قصص قصيرة من واقع الإنسان

المقدمة

داخلُ كل منّا ما يجعله عرضةً للانفجار..
حالاتُ القلق.. الحزن.. الفقد.. الخيانة.. الاختطاف.. الفقر..
والغليان..
الذي يكاد يصل إلى نقطة الانفجار..

القصص في تلك المجموعة القصيرة قليلة الحوار مع الآخر..
كثيرة الحوار مع النفس..
والعقل أحيانًا.

تبدأ المجموعة بالقصة التي تحمل اسم المجموعة (انفجار)، والتي تسرد عوامل توليد الانفجار لدى فتى في مقتبل عمره وترتيباته وخروجه من بيته لفعل شيء ما.
ثم تطوف بنا المجموعة وتروي لحظاتٍ ما لدى رجل عجوز أنهكه الزمن وتثاقلت عليه الظروف..
ثم تمرُّ بنا على فتاةٍ فقدَت حبيبها وبقيَت مع الذكريات التي جمعتهما من ذي قبل..

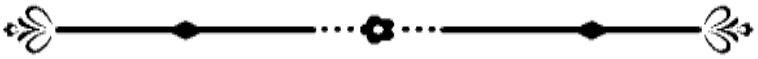

وفتاةٍ أخرى لم تفقد حبيبها ولكن فقدت حبها معه وهو معها..
وثالثةٍ عاشت لحظات عصيبة مع حبيب من نوع آخر وفراق من نوع آخر..
ورابعةٍ تسرق الحياة منها أعز من لديها لتتركها وحيدة..
ثم تذهب إلى شابٍّ قرر أن يحيا حياة أخرى في ظروف أخرى ليرى هل سيتغير واقعه أم لا..
ورجلٍ ألقته الحياة في مكان لم يكن ليتخيل من ذي قبل أن يمر من أمامه لا أن يكون داخله..
وآخر يحيا بين أقرانه لكن هناك من يصر على أن يكون خارج دائرة اهتماماتهم..
وثالث يعود إلى حبيبة من نوع خاص قد غاب عنها لفترة ليست بالقليلة ليحاورها وتحاوره ويخبرها وتخبره..
ثم تعود بنا المجموعة إلى الفتيات..
فتاتان من نوع خاص يتواجدان في مكان خاص مع شابين مختلفين ليحيوا جميعًا سويعات من التناقضات الحسية والمادية..
وفتاة أخرى يصور لها العقل أنها ليست هي بل حياتها ليست بحياتها، فهناك دائما أفضل.

نخلص من تلك القصص الخفيفة الكَم، الثقيلة المحتوى، بأن الانفجارَ واحدٌ والأسباب متعددة..

الانفجار قد يكون ماديًا أو معنويًا..

ماديًا يحدث خرابًا ودمارًا حواليه..

وويلٌ للكل من انفجارٍ معنويّ سيكون وبالًا على الجميع..

محمود أحمد إبراهيم علي
(محمود السيرة)

****

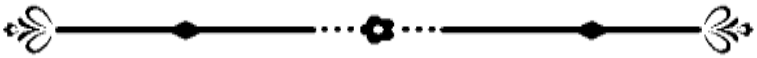

(1)

الفتى الصغير الذي يعيش بمفرده..
أين ذهبت عائلته الصغيرة، وما الذي حمله على الخروج من بيته؟
وكيف كان حاله في طريقه إلى ما خرج إليه؟
وكيف انتهى به الأمر؟

انـــفـــجـــــار

أعدَّ الفتى -ذو السبعةِ عشر ربيعًا- ثيابَه، طيَّبها بعطرٍ قد ابتاعه خصيصًا لذلك اليوم.

أخذ يجولُ ببصره في حُجرته متوسطةِ الحال..

يُمعنُ النظرَ في كل ما احتوته من أثاثٍ، سريرِه الذي قلَّما نام فوقَه من كثرة ما يؤرقُه.. خزانةِ ملابسِه التي احتفظ فيها بملابس أخرى جنبًا إلى جنبٍ مع ملابسه، بعضها لأمِّه التي لم يرها إلا من خلال صورتها التي عُلِّقتْ في بروازٍ خشبيٍّ أنيقٍ فوقَ سريرِه، وبعضها لأبيه وأخيه الذَين كانا حتى وقتٍ قريبٍ هُم كلَّ أهلِه -أو من تبقى من أهلِه.

على الحائط، وَثَبَتْ عيناه سريعًا على بعضِ الصورِ المؤطرة ببراويز عُلقت في أماكنَ مختلفةٍ على جدرانِ الحجرةِ الأربعةِ..

كلُّها لأشخاصٍ تتفاوت أعمارُهم بين الشيخوخةِ والطفولةِ.

كانت عيناه تقفُ على الصورة الواحدةِ لجزءٍ من الثانيةِ..

هو يعرفُها..

يحفظُ ملامحَها..

لكن بدا وكأنَّه يستودعُها سرًّا من أسرارِه الكثيرة.

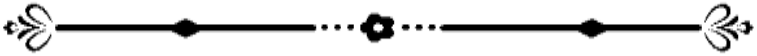

دخل حمَّـامَ الحجرةِ الصغيرَ، اغتسلَ ولم يُطِلْ في غُسلِه، تطيَّبِ هو الآخرُ بنفسِ العطرِ الذي طيَّب به ملابسَه، ارتدى جزءًا من ملابسِه، ثم ارتدى شيئًا ما على خَصرِه وأحكمَ ربطَه وتأمينَه ثم رَبَّتَ عليه برفقٍ، لبسَ قميصَه وسروالَه ثم ألقى نظرةً سريعةً على وجهِه في المرآةِ.

خرج مسرعًا..

ثم أخذت السرعةُ في التناقصِ تدريجيًا عندما خرجَ إلى الشارعِ..

تثاقلتْ قدماه..

لا لوهنٍ أصابَه، بل ليفعلَ ما فعلَه بحجرتِه، أخذَ يتأمَّلُ كلَّ ما في طريقِه..

الأشجارَ..

البيوتَ..

المتاجرَ..

الأشخاصَ..

حتى الأحجار الملقاةِ على جانبَي الطريق..

كلُّها نظراتٌ سريعةٌ، أحيانًا حزينة، وأحيانًا أخرى باسمة..

هو يعرفُها جيدًا، ولكنَّه أخذَ يُحيِّيها ويودعُها من أسراره.

مرَّ على أحدِ أصدقائِه، اصطحبَه في سيارتِه، واتجها إلى صديقٍ ثالثٍ، الذي أجرى مكالمةً تليفونيةً سريعةً نصفُ كلماتِها باللغةِ العربيةِ والنصفُ الآخرُ بلغةٍ أخرى هو يعرفُها جيدًا.

أتَتْ سيارةٌ حديثةٌ يقودُها شابٌّ ملامحُه معتادة لهم رغم كونِها مختلفة عن ملامحِهم..

اتخذَ الفتى مقعدَه..

أسندَ رأسَه للخلفِ وأغمضَ عينيه كما أمرَه الشابُّ قائدُ السيارة.

تسارعت الخواطرُ برأسِه، بعضُها من ذكرياتِ الطفولةِ القريبةِ، وبعضُها من وحي بعضِ الحكاياتِ التي رواها له أبوه وأخوه عن أمِّه وكثيرٍ من أهله الذين رحلوا في ظروفٍ مختلفةٍ متشابهةٍ.

الحكاية التي لا ينساها أبدًا بكل التفاصيل التي حُكيت له هي لحظاتُ رحيلِ أمه..

ابتسامتُها في وجهه الصغير..

وقُبلةٌ حانيةٌ بين عينيه النائمتين، وهي تكتمُ آهاتٍ لجرحٍ غائرٍ أصابها نتيجةَ عمليةِ قتلٍ مُدبَّرةٍ متوقَّعةٍ.

انتبَهَ للحظةٍ..

اعتدلَ في جِلسته على المقعدِ الأمامي للسيارةِ التي تُقِلُّه لوجهته..

أسندَ رأسه ثانيةً إلى المقعد وأسلمَ عقلَه إلى خواطره وذكرياته.

بعدَ وقتٍ ليس بالبعيد، توقفت السيارة..

أشارَ له قائدُها بالنزولِ، فهو قد أتمَّ مهمتَه التي تقاضى أجرَها كاملًا قبل بدئها..

تبادلا ابتساماتٍ صفراءَ وهو يغادرُ السيارة..

ولم يكد يضعُ قدميه على الأرض حتى طارت السيارةُ وغابت عن ناظريه.

كان يقف على جانبِ الطريقِ وفي مواجهته على الجانبِ الآخر تلك البنايةُ التي يقصدُها.

أخذَ يتقدمُ بخطًى ثابتةٍ غيرَ آبهٍ بما حولَه من ضجيجِ المدينةِ..

أصوات السيارات..

هتافات المارة..

نداءات الشباب بعضهم بعضًا..

حتى صوت الموسيقى الصاخبة المنبعث من البناية التي يتجه إليها..

كل ذلك لم يستطع أن يُخرجَه من حالة التركيز التي -بإرادته- آثر أن يعيشَها.

واصـلَ تقدمَـه وهو يتحسَّسُ بحذرٍ ملابسَه فوق خصره..

وفي أثناء تقدمِه تصارعت الأفكارُ والخواطرُ في رأسِه ثانيةً.. ومرَّتْ أمامَ عينيه ذكرياتٌ قريبةٌ..

وكانت لقلبه دقات كأنها النواقيس، لم يستطع سماعَها إلا هو.

واصـلَ تقـدمَه..

توقفت أمام عينيه ذكرى ذلك اليوم الذي شهد فيه مصـرع أبيه وأخيه، لم يحكِ له أحد تلك الواقعة فهو قد رآها رأي العين..

بل عاشها بكل تفاصيلها..

لم تستطع السنـوات القليلة التي مرَّت أن تُنسيَه تلك التفاصيل..

كان هو وأخوه يحتميان بظهر أبيهما ويُلقيان ما بأيديهما من أحجارٍ إلى أهدافها مثلما يفعل أبوهما في مواجهة من اعتادوا مواجهتهم، وفي لحظةٍ ما حاولوا جميعًا الفرار، نجح الصبي -ساعتها- في ذلك، لكنَّ أباه أبصرَ أخاه وهو يتعثر فرجع إليه واحتضنه وجعل من جسدِه درعًا واقيًا له.

أخذ الأبُّ يصرخ..

ويستغيثُ كي يتركوا ولدَه..

كانت عيناه تركضان بين ولدِه الذي تحتَه وبين ولدِه الذي اختبأ مع من اختبأوا..

وبنفسِ الابتسامةِ التي ودَّعتْه بها أمُّه -التي لم يرها- ودَّعه أبوه عندما أيقن أن لا مفر من المصير المحتوم، رأى أصابعَ أبيه وهي تكاد تخترق جسدَ أخيه خوفًا من فراقه، ونجح الأب في ذلك، فلقد صار جسدُه وجسدُ ولدِه جسدًا واحدًا، بل جثةً واحدةً غارقةً في بركةٍ من الدماء وحولَهما أكوامٌ من الحجارة وأكوامٌ من طلقاتِ الرَّصاص، وبدت جثتُهما أشبه بالمصفاة.

واصـل تقـدمَـه..

لم يستطعْ منعَ الدمعاتِ أن تترقرق في عينيه..

وعندما همّ بمدِّ كفِّه ليمسحَها وجدَ دقات قلبه قد علا صوتُها وازداد عددُها، ووجدَ نفسَه أمامَ البنايةِ التي يقصدُها..

لم تُكملْ يدُه طريقَها إلى عينيه..

وراحت بحذرٍ شديدٍ -وللمرةِ الأخيرةِ- تمرُّ على خصرِه وبطنِه..

ثم دخلَ البنايةَ..

وما هي إلا دقائق معدودة حتى كان هذا الخبر في جميع وسائل الإعلام:

"وقع منذُ قليلٍ انفجارٌ عنيفٌ هزَّ أرجاءَ تلِّ أبيب، أسفرَ عن مقتلِ خمسة عشر مستوطنًا، وإصابةِ العشرات، واستشهادِ فتى فلسطيني، منفذ العملية".

(2)

مفارقة الأهل والرفاق..

والهجرة وإن كانت داخل نفس الوطن..

تولِّد نوعًا ما من الضغط المعنوي الرهيب الذي يزيد بكبر السن وعدم القدرة على المنافسة لاكتساب ما يُعين على العيش في تلك الحياة.

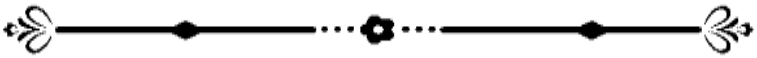

العجوز والهمـوم

نظـَر فرأى تجمُّعـًا على رصيفِ أحدِ الشوارعِ الرئيسيةِ وقد جلسَ كلُّ من في الجمـعِ وبجوارِه مِعولٌ ومِطرقةٌ قد ربطهما معًا بحبلٍ بالٍ، ومُسنِدًا رأسَه على راحتيه ينتظرُ مَن يأتي كي يستأجرَه.

إنَّه ينتظـرُ أيَّ عملٍ..

في أي مكانٍ..

تحتَ أية ظروفٍ..

مقابلَ أي أجرٍ.

جلسَ العجوزُ بجوارِ هذا الجمعِ، وبدا كأنَّه قد استأثر لنفسِه بهمومِ الدنيا وربطها مع معوله ومطرقته وجلس يتأمَّلها يشكو منهـا.. وإليهـا.

ملامحُ الرجلِ عتيقةٌ..

وجهُه كانت محفورة عليه آثار الدهر..

عيناهُ خَشِيَتا أن تنظرَا إلى مآسي صاحبهما فغارتا هربًا داخلَ وجهِه..

أذناه الكبيرتان كانتا -على الرغم من حالة تأمله وشكواه- تُصغيان إلى ما حولهما كي يأخذَ فرصتَه عندما يأتي المستأجرُ..

بشرتُه السمراءُ الجدباءُ التي كانت ترويها قطراتُ عرقِه كانت تشبه تلك الأرض التي تركَها وأتى إلى المدينة.

كان العجوزُ غارقًا في بحرِ تفكيره عندما هبَّ فجأة وخرج من حالة تأمله..

وأخذ -على الرغم من ضعفه- يجري هو ومن معه ناحيةَ المستأجرِ الذي جاءَ ليستأجر مجموعةً من العُمَّال.

حاول العجوزُ أن يتقدَّمَ الصفوفَ رغم مُدافعةِ الشبابِ والصبيةِ له..

ولسوءِ حظِّه -أو لحسنه- فإنه لم يتمّ اختياره، فرجعَ إلى مكانِه يجرُّ رجلَيه وغرقَ في تأمله وشكـواه.

في صبيحة اليوم التالي..

كان الجمعُ على حالةِ الأمسِ، كلٌّ في موضعه ووضعه، إلا موضع العجوز، فلم يكن به سوى..

المِعول..

والمِطرقة..

والهـمـوم.

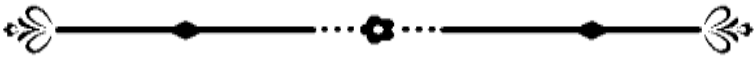

(3)

صورة واحدة قد تنقلك لذكريات من أجمل ذكريات الحياة..
وقد تذكرك بمن أحببت ومن أحبك..
لكن هل هذه الصورة بذكرياتها تكون سببًا في دموعك؟

صـورة ودمعـة

دخَلتْ غُرفتَها..

أحكمتْ إغلاقَ بابِها..

ثم اتَّجهتْ إلى دولابها..

أخرجتْ صُندوقًا خشبيًّا صغيرًا، ثم أخرجت منه مجموعةً من الصُّوَرِ، أخذتها وجلستْ على سريرِها..

من بين تلك الصورِ اختارت صورةً وأمسكتها بيُمناها، وجمعت الصورَ الأخرى بيسراها ونحَّتها جانبًا.

أخذتْ تنظرُ إلى تلك الصورةِ وتسترجعُ ذكرياتِها..

شعرتْ بالدموعِ وقد بدأتْ تترقرقُ في عينيها..

وعندما وصلت بذاكرتها إلى وقتِ التقاطِ الصورةِ، استطاعت دمعةٌ أن تتحرَّرَ وتسبقَ الدمعات الأُخريات وأخذت طريقَها على خدِّها لتُعيدَها إلى ذكرى الصورة.

أحسَّت بيدِ حبيبِها وقد امتَّدت لتمسحَ دمعتَها، ثم أخذَ يُمرِّرُها على جبينِها وشعرِها ليُضفي عليها بعض الاطمئنان الذي بدأت تفقدُه.

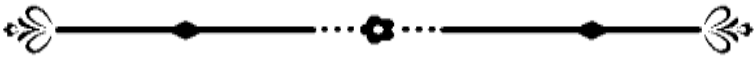

وفي ذلك الموقفِ..

تعطَّلَ اللسانُ عن أداءِ مهمتِه وأوكلَها إلى العينين واليدين..

بدأت العينان في إرسالِ النظراتِ التي لم تكِلّ من المواجهة..

نظرتْ هي فقالت عينُها:

"لماذا وصلني هذ الإحساسُ بأنَّك لم تعُدْ معي كما بدأتَ؟ أُحسُّ أنك تبعد عني شيئًا فشيئًا وأخشى أن يأتي اليومُ الذي لا أستطيع رؤيتَك والنظرَ إليك، ما الأسبابُ؟ لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟".

قاطعتْ نظراتُه نظراتِها لتُبدي مبرراتِه وتشرحَ موقفَه، فقالت مُدافعةً عنه:

"إنني لم أبعد عنكِ، ولن يأتي اليوم الذي أصبح فيه مع غيركِ، فأنا معكِ منذ أن أتيتُ وإلى أن أرحلَ..

معكِ بروحي..

معكِ بكل حواسِّي..

وإن كان قد أتاكِ هذا الإحساسُ، فهو إحساسُ مَن تملَّك الشيءَ بعد عناءٍ شديدٍ ويخشى أن يضيعَ منه، فهو دليلٌ على مدى قربي منكِ ومدى تواصلِ قلبَينا، ومدى ذوباننا معًا لنصبحَ شيئًا واحدًا لا ولن يستطيع أن ينفصلَ إلى شيئين اثنين".

وعندما تصافحت العينان..
أخذت اليدان دورَهما في نقـلِ المشاعر..
وكلَّما ازدادت حرارةُ المشاعرِ زادت معها درجةُ اعتناق اليدين..
حتى أنهما أحسَّا أنهما بالفعلِ أصبحا واحدًا لا يستطيع أحدٌ أن يفرق بين العاشق والمعشوق.

وفي ذلك الموضع تم التقاط تلك الصورة التي كانت آخرَ صورةٍ تُلتقطُ لها مع حبيبِها.

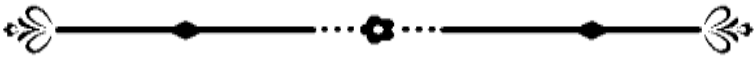

(4)

من المعروف أنه صديق العاشقين..

يشهد لحظات التعارف وتكرار اللقاء..

ينير الطريق لمن أراد السير، محبًّا لرفيقه..

لكن هل للقمر دموع؟

كيف ومتى؟

دمـوع القمـر

"إنهـا دموعُ القمـر"!

كانت تلك هي آخرُ كلماتِها إليَّ في آخر لقاءٍ لنا..

قالتها وأنا ألمحُ في عينيها نظراتٍ حائرةً تائهةً لا تعرفُ أين تسكـنُ..

ظلَّت تلك النظراتُ حائرةً تائهةً إلى أن استطاعت أن تُلاقي نظراتي التي كانت تبحث عن نظراتٍ تعرفُ لغةَ حديثها..

دار الحوارُ بين النظرات..

عتـابٌ.. ولـومٌ..

شـوقٌ.. ووداعٌ..

حزنٌ.. وفـراقٌ..

أمـلٌ.. ورجاءٌ.

كانت جُمَلُ الحوارِ قصيرة، ولكنَّها كانت بليغةً، استطاعت أن تنقلَ ما كان لا يستطيع اللسان النطق به.

كان اللقاءُ في ليلةٍ من ليالي الخريفِ..

تحتَ نفسِ الشجـرةِ التي طالما شهدتْ لقاءاتِنا..

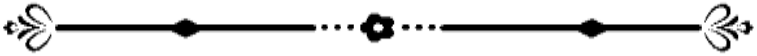

لكنَّها في تلك الليلة كان عليها أثرٌ من آثارِ الحزنِ.. أتُراها أحسَّت بقرب موعدِ الفراق؟

كانت الشجرةُ ذابلةً..

وما تبقَّى من أوراقها يعلوه الاصفرارُ وتكسوه طبقةٌ من الجفافِ الذي جعل خطوطَ التشققِ تتوزعُ بصورة شبه منتظمةٍ على الأوراق.

القمرُ في تلك الليلةِ كان بدرًا..

وكأنَّه أرادَ أن يُضيءَ المكانَ حتى ترى العيـونُ بعضها بعضًا..

ظلَّ القمرُ معي يُؤنسني حتى تأتي، وكلما نظرتُ إليه رأيتُه يذكرني بما كان لنا من ذكرياتٍ شهدها هو معنا في ذلك المكان.

مرَّت ذكرى أولِ لقاءٍ أمامَ عيني كأنَّما كان اللقاءُ بالأمسِ القريبِ..

تذكرتُ عندما تلاقت أعينُنا ووجدَ كلٌّ مِنّا في الآخر ما كان يريدُه..

أمَّا أنا فوجدتُّ من أستطيعُ أن أبُثَّه كلَّ ما في نفسي وكلَّ ما يجولُ بخاطري..

ووجدَتْ هي من يستطيعُ أن يُنسيَها كلَّ من يُعكر صفوَ حياتها ولا يفكر في إرضاء من يحبهم ويحبونه، وجدَت الصدرَ الدافئ، ذلك الصدر الذي كلما تاهت في دروب الدنيا لم تجد غيرَه مأوًى تستمدُّ منه الطمأنينةَ والهدى.

أحسَستُ بصوتِ أقدامِها وهي تدوسُ ورقَ الشجرةِ المترامي على الأرض فالتفتُّ إليها..

أسرعتُ نحوها..

مددتُ يدي إليها..

وبلا ترددٍ.. مدَّتْ هي الأخرى يديها..

أخذتُ أضمُّها إليَّ وتضمُّني إليها، كلٌّ منّا يستمدُّ الدفءَ من الآخر، كلٌّ منّا يستمد القوة من الآخر.

شعرتُ بشيءٍ ما يُبلِّلُ ذراعي فنظرتُ في وجهها..

رأيتُه مخضبًا بالدموع..

بادرتُها بسؤالي عن تلك الدموعِ..

وأتاني الردُّ مُسرعًا:

"إنها ليست دموعي..

إنها دموعُ القمر".

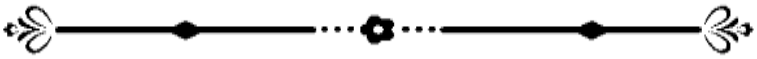

(5)

ارتباط الفتاة بمن تحب يجعلها تتوّجِهُ مَلِكًا على عرش حياتها..
خاصة إن كان ذلك في سن مبكرة..
لحظات الفراق تجعل قلبها يقطر دمًا دون أن يُجرح..
وخاصة إن كان ذلك الفراق محتومًا.

لا تتـرُكني وترحـل

أرادتْ أن تهزمَ استسلامَها للشرودِ والأرقِ المستمرَّين..

قامتْ إلى صندوقها الخشبي الذي تحفظ به أعز ما تبقى لها في دنياها تلك..

تناولتْ واحدًا من ألبومات صورها والتي كانت من قبل قد أسمته "ألبوم الذكريات".

أخذتْ تُقلِّبُ في ألبومِ ذكرياتها..

توقفتْ عند الصورةِ التي تُحبُّ دائمًا أن تراها..

ورغمًا عنها أخرجتْ تلك الصورةَ من مكانِها وأخذتْ تُمعنُ النظرَ فيها، وشيئًا فشيئًا بدأتْ تتلألأ في عينيها بعضُ الدمعات.

قادتها تلك الصورةُ إلى تذكرِ أكثر شخص أحبَّته في حياتِها القصيرة التي لم يتعدَّ عمرُها العشرين عامًا..

تذكَّرتْ آخرَ لقاءٍ جمعَ بينهما..

كان لقاءً حزينًا..

لقاءً عجزتْ كلُّ أقلامِها عن وصفه..

وجفَّتْ كلُّ أوراقِها من كثرة الدموعِ التي انسالت عليها.

تذكرتْ عندما جلستْ بجوارهِ على طرفِ سريرِه وحاولتْ جاهدةً أن تطلبَ منه ألاَّ يرحلَ ويتركَها وحيدةً..

يتركها لتلاقي ما كرهتْ من قبلُ أن تلاقيَه وحدها..

وجنَّبَها هو ما كرهت..

لكنَّها عجزتْ عن ذلك..

لأنها أدركت أنَّه لا بُدَّ من رحيله ولا بد أن يتركَها..

مصيرُه قد تحدَّدَ ليُحدّد مصيرها.

نظرتْ إليه..

وجدَتْ عينيه لم تعدْ كما كانت تراها من قبل..

وكأنَّها تبدَّلت..

فبعد أن كانتْ مليئةً بالحياةِ والأملِ في إسعادِها، أصبحتْ لا تَحوي سوى نظراتٍ لم تفهمْ هي معناها..

ولم يستطعْ هو ترجمتَها..

أهي نظراتُ حيرةٍ؟!

أم نظراتُ وداعٍ؟!

أم نظراتُ المحبِّ الذي اضطُر إلى تركِ من يحب؟!

أسرعت يدُها إلى يده، وأخذتْ تضمُّها.. تستمدُّ منها الحنانَ الذي ستفقده إلى الأبد..

تارةً تضعُها على وجهِها وتقبِّلُها قبلاتٍ حانيةً..
وتارةً أخرى تضعُها على قلبِها علَّها تستمدُّ منه بعضًا من نبضاتِه فتعيد الحياةَ إلى صاحبِها كما كانت.
حاولَتْ..
لكنه الفراقُ..
إلى الأبدِ..
نعم، إلى الأبدِ..
هي أدركتْ ذلك.

لم يستطعْ هو تحمُّل رؤيتها وهي على هذه الحال..
حاولَ مرارًا منعَ أن تصلَ الحياةُ بينهما إلى تلك اللحظاتِ الصعبةِ على كليهما..
ولكن لا حيلةَ له..
فأخذت الدموعُ تنهمرُ على خديه، فتركتْ يدُها يدَه..
وتقدمتْ لتمسحَ عنه دموعَه..
أرادتْ أن تُخفِّفَ عليه وطأةَ الموقف، فرسمتْ على وجهِها ابتسامةً خفيفةً تُغطيها الدموعُ..
وجاءَ دورُه هو ليمسحَ عنها دموعَها..
تحاملَ على نفسِه ورفع ذراعَه..

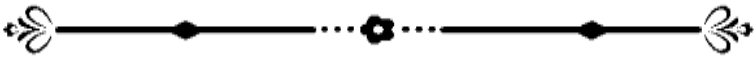

وفي طريقها إلى وجهِها سقطت..

سقطت ذراعُه..

وأُغمِضتْ عيناه..

بينما وجهُه يميلُ على الوسادةِ التي تحت رأسِه.

برقَتْ عيناها..

أدركَت أنه بالفعلِ قد فارقها إلى الأبدِ..

ولا تدري كيف صرختْ بأعلى صوتها وهي تمسكُ صورته:

"أبي.. لا تتركني وترحل يا أبي".

(6)

الافتراق ليس فقط افتراق مكان..
قد تكون وسط الناس لكنك تشعر بالغربة..
ومما يؤلم أشد الألم أن يكون ذلك الاغتراب عن أكثر من أحببتَ وهو بجوارك.

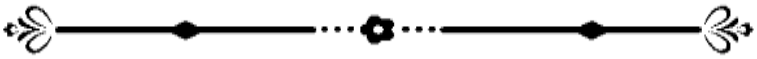

لقـاءٌ مختلـفٌ

أحسَّتْ ببرودةِ اللقاءِ..
شعرَتْ أنَّه مختلفٌ هذه المرة..
ففي كل اللقاءاتِ السابقةِ كانت تسبقُه لهفتُه..
يُرى شوقُه إليها..
وإلى كل ما فيها..
إلى حبِّها..
إلى إحساسِها..
إلى فيضِ مشاعرِها وحنانِها الذي ينهالُ عليه.

هذا اللقاء أتى وكأنَّه مضطَّرٌ لأن يأتي..
جلسَ معها وكأنَّ أحدًا أجبرَه على الجلوسِ..
فعلَ كلَّ شيءٍ كان يفعلُه قبل ذلك ولكنَّه بدا وكأنَّه يقومُ بأداءِ فعلٍ روتيني اعتادَ على أدائه من حينٍ لآخر.

عندما امتدَّتْ يدُه إليها وجعلتْ تمرُّ عليها برفقٍ مُصطنعٍ، سرَتْ في بدنِها رجفةٌ خفيفةٌ..

كانت قد اعتادتْ على هذه الرجفةِ قبلَ ذلك ولكنَّها كانت رجفةَ نشوةٍ..
رجفةَ لذةٍ..
رجفةَ إحساسٍ داخلي ينسابُ من يديه إلى كل ما فيها..
لكن هذه المرة كانت الرجفةُ رجفةَ خوفٍ..
رجفةَ قلقٍ..
رجفةَ شعورٍ ما بأنَّ هناك شيئًا قد حدث.

انسابت يدُه في رقةٍ بالغةٍ وأخذَ ينثرُ عليها كمًّا من اللمساتِ التي لو وُزعتْ على بناتِ جنسِها لكانت كافيةً أن تجعلَهن يقعنَ في شِباكِ حُبِّه..
ذلك هو حُكمُ كلِّ من يرى يدَه وهي تتلمسها برفق..
إلا هي..
لم يخطرْ هذا ببالها، فلقد اختلف إحساسُها بلمساتِه نهائيًا، فلم تعد تلك اللمسات تغمرُها في بحر الاطمئنانِ من الزمانِ كما كانت من قبلُ..
لم تعد تشعر أنها المخلوقةُ الوحيدةُ التي تنعمُ بهذا الحب.

عندما ضمَّها إليه حاولَ أن يُضفيَ عليها بعضًا مما كانت قد اعتادتْ عليه، فشلَ في ذلك..
في ذلك الوضع حاولتْ هي تكذيبَ أحاسيسها..
حاولت قمعَ الهواجسِ التي تجمعتْ أمامَ عينيها منذ بدايةِ اللقاء..

حاولت أن تمنحَه ما اعتاد عليه من دفءِ القلوبِ ورقةِ المشاعرِ، أخذتْ تضمُّه إليها بقوةٍ..

ولكن هيهات!

قوبلت تلك الموجةُ الحارةُ من المشاعرِ بجبالِ جليدٍ صلبةٍ لم تستطعْ الحرارةُ أن تذيبَها..

عندئذ..

ابتعدَ هو..

وانتفضتْ هي مذعورةً وعينيها تترقرقُ فيهما الدموعُ، وعينُه تنظر إليها بلا أدنى رد فعل.

أمعنَت النظرَ في عينيه..

حاولتْ أن تعرفَ سرَّ هذا التحولِ المفاجئ..

اجتهدتْ في قراءةِ ما تحملُه عيناه من رسائلَ خاصةٍ لا يستطيع مخلوقٌ على وجهِ الأرضِ أن يقرأَها سوى المرأة..

المرأةُ فقط هي القادرةُ على معرفة ما ينوي الرجلُ أن يفعلَه أو يقولَه بمجردِ النظرِ في عينيه.

وبالحسِّ الأنثوي، أدركتْ سرَّ هذا الانقلابِ العاطفي..

أدركتْ أنَّ امرأةً أخرى قد اقتحمتْ عليه حياتَه وحاولتْ أن تغتالَ حُبًّا لم تعرف -ولن تعرف- الأرضُ مثلَه..

ولكن هل معرفةُ امرأةٍ أخرى قادرة على أن تقلبَ حالَ الرجلِ وتُكسبَه هذه البلادةَ العاطفيةَ؟!

بالتأكيد لا..

لا تستطيعُ أن تُغيِّرَ امرأةٌ عاطفةَ الرجلِ تجاه من أحبَّها حُبًّا مختلفًا..

ولكنه قد يكون قلقًا بعض الشيء من إخفائه تلك الحقيقة عنها، أو أن يكون مضطرب العواطف، فهو يحبها ولكن الأخرى استطاعت أن تؤثر عليه، لذا فهو لا يريد أن يكون مع حبيبته ويكون جزءٌ من مشاعره مع أخرى.

إذن جمودُه معها إنما هو من فرطِ حبِّه لها..

يريد أن يكون كله بين يديها..

كلُّه مِلكها..

كلُّه لها.

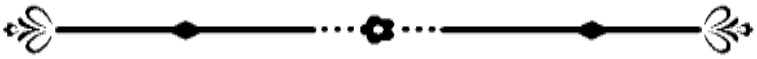

(7)

تُرى كيف يحيا من عاش طيلة عمره مبصرًا ثم صار يومًا ما أعمى..

لا يرى ما كان يراه..

خطواته تغيرت.. لمسات يده تغيرت.. قوة سمعه تغيرت..

المعاناة أشد إن كان في الأصل قارئًا نهمًا شغوفًا بقراءة ما تمتلئ به مكتبته الخاصة.

يـومُ أعـمـى

لم يعتَدْ هذا الفتى ذلك الظلامَ الذي يملأ عينيه تلك..
أينما يُحرِّك عينيه يرى سوادًا..
ولا شيء غيرَ السواد.
هو يعلمُ تمامًا أنَّ حجرتَه يملؤها الضوءُ ولكنَّ عينيه تملؤها الظُّلمةُ..
ولا شيء غير الظلمة.

قام يتحركُ في حجرته..
أخذ يتعثرُ في أثاثِها..
كان يظن أنه يحفظُ كلَّ شبرٍ فيـها وأنَّه يستطيعُ التحركَ فيها في الظلام، ولكن شتَّان بين ظلامٍ خارجي وظلامٍ داخلي..
أخذَ يتحسَّس بيديه طريقَه ولا ينقلُ رجلَه إلا بعدَ التأكدِ من خطوته، كان انتقالُ رجله من موضعٍ لآخر يستغرقُ وقتًا طويلًا..
طولُ الوقتِ لم يكن مُطلقًا ولكنه كان وقتًا أطولَ من ذي قبل، فهو قبل ذلك اليوم كان يقطع الحجرة ذهابًا وإيابًا في وقتٍ مساوٍ لوقتِ خطوةٍ واحدةٍ اليوم.

شعرَ أنَّ قوةَ حاسَّةِ بصرِه قد انتقلتْ إلى يديه وأذنيه..

فبعدما كان يُبصر بعينين اثنتين صارَ يُبصر بواسطة يدين تساعدهما أذنان..

حيث إنَّه شعرَ أيضًا أن قوةَ سمعِه قد زادتْ..

فهو الآن يسمعُ أصواتًا ما كان ليسمعها من ذي قبل..

ولا يدري أذلك زيادة في قوة سمعه بالفعل أم أنه قبل ذلك اليوم كان ينشغل عن تلك الأصوات بما ينظر إليه..

لا يدري!

تحسس طريقه إلى خزانة كتبه..

استطاع بعد جهدٍ ومثابرةٍ أن يصل إليها دون أن يتعثر في شيء..

ولأن قدرته على النظر قد تعطلت فقد قامت بدورها قدرتُه على اللمسِ وأخذ يتحسس كُتبَه بكلتا يديه، كان قبل ذلك اليوم يمد يده ويسحب الكتاب الذي يريده دون أدنى مجهود يذكر..

أما الآن فهو لا يدري على أي كتاب تمر يده..

هو يتذكر كيف نظَّم كتبه، يده اليمنى الآن على الجزء الذي يضم كتبَ الأدبِ التي كان يُحبُّ قراءتها، ولكنه لا يدري أي كتاب يمسكه الآن..

أهو ديوان شعر؟
أم مجموعة قصصية؟
أم تراها رواية؟
أم أنها مسرحية؟
ولعله يكون كتابَ نقدٍ..
لا يدري!

بعدما يئست يمناه من معرفة الكتاب الذي أمسكته، وضعَته في مكانه ونزلت لتستقر في وضعها الطبيعي..

ثم أخذ العقلُ دوره ليفكر..

كيف سيستطيع ذلك الفتى قراءة تلك الكتب مرة أخرى؟

هل سيستعين بمن يقرأها له؟

أم سيتعلم تلك الطريقة التي ابتُكرَت خصيصًا لمن هم في مثل حالته تلك؟

وجد أن الأمرين كليهما أشقُّ عليه من الآخر، أبَعدما كان يقرأ الكتاب بمفرده بترَوٍّ ويمسكُ بقلمه ليُظلل بعض العبارات المهمة ويكتب تعليقاته على صفحات الكتاب الذي يقرأه، يأتي اليوم الذي يقرأ له آخرون؟

ماذا يفعل إذا لم يصل هؤلاء الآخرين ما يقرأونه وأخذوا يرددونه مثلَ أخبارٍ في جريدة؟

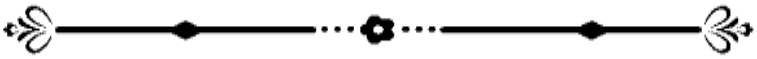

وماذا يفعل إذا ملَّ هؤلاء الآخرون من القراءة بينما هو لم يشبع منها بعد؟

وحتى لو تعلَّم تلك الطريقة فإنه سوف يعتمد في قراءته على حاسة واحدة فقط ألا وهي حاسة اللمس، وسيفقد حاسة مهمة كانت تعينه على أكبر قدر من فهم ما يقرأه ألا وهي حاسة البصر.

شعر بحزنٍ شديد وأدرك أن حياتَه كلَّها ستتغير تغيرًا جذريًّا بدءًا من اليـوم..

وأنه سيتوقف عن بعض الأعمال التي كان يقوم بها قبل ذلك اليوم..

وأنه سيضطر إلى مواصلة أعمال أخرى ولكن بأسلوب مختلف تمامًا عن ذي قبل.

ملأه إحساس كآبة دفَعه إلى الإسراع بفتح عينيه التي كان قد قرر أن يُجرِّب يومًا يعيشُه دون أن يفتحَها من أوَّلِ اليوم إلى أن يجيءَ موعد نومه!

ثم سجد..

وأخذ يردد:

"الحمد لله، الحمد لله".

(8)

لا ناقة له ولا جمل في الأمر كله..
لكنه وجد نفسه حاملًا على كاهله حملًا ثقيلًا..
لا يدري كيف سيواجهه بمفرده..
حتى من جاء معه ليعاونه لم يستطع إنزال الأثقال من على قلبه.

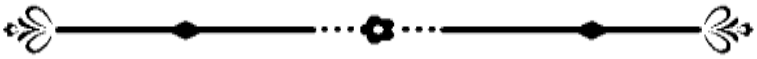

كبـشُ الفـداء

دخلَ القاعةَ..
أخذَ ينظرُ في الحاضرين..
يتأمَّل الوجوه..
يُفتش عن وجهٍ يعرفُه جيدًا..
فقد جاء صاحبُ هذا الوجه ليكون بجانبه اليوم.

لم يجد الوجه الذي كان يبحث عنه..
ارتمى على أقرب مقعدٍ قابله..
أخذ ينظر في ساعتِه مرارًا، ويدير وجهه نحو باب القاعة، وفي كل مرة لا يجد ما يبحث عنه.

القاعة كان يسودُها الفوضى..
فمن قارئٍ لجريدةٍ..
ومن مُقلِّبٍ لأوراقٍ..
أحدُهم كان نائمًا ساندًا رأسه على ظهر المقعد الذي أمامه..

الباقون يتحدثون وأحاديثهم تداخلت مع بعضها بعضًا لتُشكِّلَ صوتًا مثل هديرِ أمواجِ البحرِ الغاضبِ عندما تقتربُ من الشاطئ وتضربُ الصخورَ بكل قوتها.

هديرُ الكلامِ أسلَمَه إلى تذكُّرِ ما جاء هنا من أجله..

فهو عاملٌ لا حولَ له ولا قوة يعمل لدى مؤسسةٍ تِجاريةٍ كبرى، وينفذُ ما لهذه المؤسسة من قوانين ويباشر ما يسنده إليه رؤساؤه من مهام. وفي يومٍ من الأيام التي لا ولن يستطيع أن ينساها، أثارَ أحد العملاء مشكلةً كبرى معه نتيجة استيائه من بعض أعمال المؤسسة.

وحتى الآن هو لا يعرف كيف تحولت المشكلة إلى دعوى قضائية..

وحتى الآن أيضًا لا يدري لماذا أقيمت تلك الدعوى ضده هو لا ضد المؤسسة التي يعمـل لديها.

"الأستاذ!".

قالها وأسرع نحو بابِ القاعةِ، فها هو قد وصل الذي كان ينتظرُه..

وصلَ الذي بيده أن يُزيح الهموم التي سكنته رغمًا عنه..

ودون سابق إنذار..

صحبه الأستاذُ إلى خارجِ القاعةِ وأخذَ يُطمئنه ويعـدد له أسباب اطمئنانه..

والتي كان من أهمها أن اللائمة كلها تقع على المؤسسة لا على العامل الذي يطبق لوائح تلك المؤسسة، وأكَّد له أن كبارَ موظفي المؤسسة يريدون أن يقدموه كبشَ فداءٍ حتى لا تتأثرَ المؤسسةُ من قريبٍ أو بعيدٍ.

حاول أن يُطمئنَ نفسه ويقتنع بكلام الأستاذ..

لكن كيف يَطمئنُّ قبلَ أن يسمعَ بأذنيه الحُكمَ النهائي في تلك القضيةِ التي لا يدري من أين أتت له!

نادى الحاجبُ على قضيته..

دخل الأستاذُ إلى القاعة ونصحه بالبقاء خارجها..

لم يدرِ كم من الوقت مرَّ عليه..

لم يدرِ ما دار في رأسه في أثناء تلك الفترة التي قضاها الأستاذ بالداخل..

وحينما خرج الأستاذ محاولًا رسمَ ابتسامةٍ على وجهه مرَّ وقتٌ كالدهرِ..

حتى قال الأستاذ:

"لم يحِنْ رفعُ السكينِ عن رقبةِ الكبشِ بعد، لقد تمَّ التأجيلُ".

أجابه بصوتٍ يحملُ معاناةَ الفترةِ الماضيةِ منذ إقامةِ تلك الدعوى:

"آهٍ، لمـــــــاذا؟!".

(9)

علاقة ربطت بين أحد الشباب وصندوق..
يذهب إليه يوميًّا ليأخذ شيئًا ما بداخله يضعه الآخرون..
رغم ازدحام المارَّة، لم يجد ذلك الشاب سوى ذلك الصندوق ليُشبع احتياجات أساسية في حياته..
لكن حتى الصندوق لا يدوم.

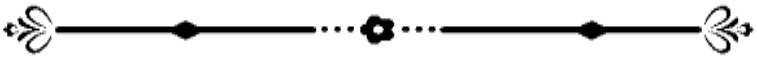

الـصـنـدوق

سـار ينظرُ إلى كلِّ من حولَه..
يطلُّ في الوجوه..
ثم يُنزلُ بصرَه إلى الملابسِ يتفحصها قطعةً قطعةً..
أو بالأدق خيطًا خيطًا..
ولأنَّه كان في أحدِ الشوارعِ الرئيسيةِ للعاصمةِ، والكلُّ إما حاملًا ملابسَ جديدة في أكياس لامعةٍ لها صوتٌ هو يعرفه، أو حاملًا ما يأكلُه أو يشربُه، سار ذلك الشابُّ يطيلُ النظرَ في كلِّ ما يحملُه هؤلاء الناس الآخرون.

حارت عيناه..
أينظرُ إلى الناسِ وما يحملونه؟
وما يأكلونه؟
وما يشربونه؟
أم ينظرُ إلى واجهاتِ المحالِ وما تعرضه من ملابس جديدةٍ وأكلٍ وشربٍ؟

ولكن لأن أنوارَ المحالِ كادتْ أن تخطفَ بصرَه، لم يجد بُدًّا من النظرِ إلى الناس الآخرين.

واصلَ سيرَه البطيء -رغم شبابه- حتى وصلَ إلى نهايةِ رحلتِه اليوميةِ..
أمامَ محل أطعمةٍ شهيرٍ..
تقفُ أمامَه الناس في طوابيرَ طويلةٍ..
يتحركون في طابورهم كالسلاحف..
مَن يخرجُ من أول الطابور يخرج محملًا بالأكياس المملوءة وعرَقه قد صار مرقه.

جلس الشابُّ الهزيلُ في موضعه المعتاد..
بجوار صندوقٍ يعرفه جيدًا..
صندوقٌ يتواجد منه الكثيرُ في المنطقة، ولكنَّه أحسَّ بألفةٍ بينه وبين ذلك الصندوق فاختاره ليكون نهاية مطافه كلَّ ليلة.

وقفَ الناسُ يملأون الشارعَ القصير..
يملأون أفواههم وأيديهم بالأكل..
يتحدثون..
يضحكون..

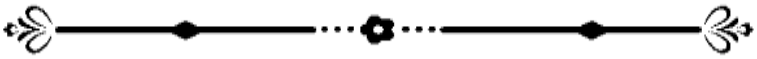

يداعبون بعضهم بعضًا..

يلقون ببقايا طعامهم في صندوق خُصص لذلك..

ولأن معظم من يقفون من الشباب، كان لذلك المكان ضجيجٌ من نوع خاص.

مرَّ الوقتُ..

وانتصف ليلُ العاصمة..

وبدأت الأشخـاص تختفي من المكان..

ابتسم الشابُّ ابتسامتَه اليومية، وأدار وجهه ناحيةَ الصندوق وكأنَّه يقولُ له شيئًا ما..

مدَّ يده داخل الصندوق وبدأ يتناول طعام الغداء والعشاء..

عيناه لا تستقرَّان في مكان..

وكأنهما تنتظران قدومَ أناسٍ اعتادت على رؤيتهم في ذلك الوقت.

وبالفعل لم تمر سوى دقائق..

أتت سيارةٌ كبيرةٌ نزل منها بعضُ الأشخاص الذين قاموا برفع الصندوق من أمامه وإفراغ محتوياته في السيارة التي كُتب عليها:

"هيئة النظافة والتجميل بالعاصمة".

(10)

رغم حداثة سنها.. تفعل ما لا تفعله قريناتها..
تتواجد في أماكن ليست لها..
تتحدث إلى أشخاص ليسوا أسوياء النية والمقصد..
ما هي دوافعها؟
وما هي عواقب أفعالها؟

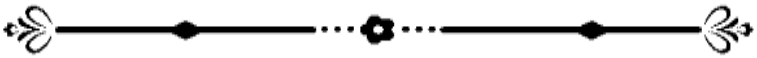

القاصرة

أصرَّ صديقي هذه المرَّةَ أن يأخذَني معه..
ولأنَّ إصراره صادفَ هوًى في نفسي، وافقتُ..
كنت أعلمُ طبيعةَ الأماكن التي يتردَّدُ عليها..
كنتُ أعلمُ أني سأكون على حالٍ غير التي أحبُّ أن أكون عليها..
كنتُ أعلمُ أني من الممكنِ أن أقومَ بأفعالٍ لا أرضى عنها..
وبالرغم من كل ذلك، وافقتُ..
لا أدري، هل هو الفضول؟
أم دافع التجربة؟
أم أنِّي أردتُّ أن أختبرَ صدقَ صديقي فيما كان يرويه لي من حكاياته ومغامراته؟
أم أنِّي أردتُّ أن أقومَ بعمل شيء لم أعمله من قبل وأتمنى عمله حتى لو لم أكن راضيًا عنه؟
وافقتُ.
ذهبتُ معه، أخذني إلى أحد تلك الأماكن التي اعتاد أن يقضي فيها سهراته، وأول ما دخلنا تجمَّع عليه عاملو المكان وحيّوه وردَّدوا عباراتٍ كأنَّهم حفظوها عن ظهر قلبٍ من كثرةِ ترديدها:

"كيف حالُك يا باشا؟".

"منذ فترة لم نرك".

"أوحشتنا!".

جلسنا وأحسَستُ أني غريبٌ في هذا المكان، فلا المكانُ مثل الأماكن التي أرتادها، ولا أنا مثل من يأتي إليها، أمرَ صديقي النادلَ بإحضار ما أريده..

ولأنني ما زلت في شك من ذلك المكان، جعلت أنظر فيمن حولي وألحظ ما يشربون فلم أرَ مُحرَّمًا، طلب صديقي فنجان قهوة، وزاد عليه شيشته، أما أنا فاكتفيت بعصير.

استأذن صديقي في الغياب عني لإجراء مكالمةٍ هاتفيةٍ، ولم يمكثْ طويلًا ثم عاد والابتسامةُ مرسومةٌ على وجهه وقال:

"في الطريق!".

استغرقتُ في الصمتِ، واكتفيت بالنظرِ إلى من حولي وملاحظةِ تصرفاتهم وتحركاتهم، وصوتُ الموسيقى يملأ المكان..

نعم، الموسيقى هي التي اعتدتُّ على سماعها، لكن مَن حولي لم أكن لأراهم إلا من بعيد.

أتى النادلُ بما طلبناه ورصه على المنضدةِ أمامنا، ثم انصرف..

قامَ صديقي من مكانه ليستقبل فتاتَين، سلَّمَ عليهما وعرَّفني بهما وعرفهما بي، سلَّمتُ عليهما، جلستْ إحداهما بجواري والأخرى بجواره..

مَن جلستْ بجوار صديقي كانت ملامحها تنم عن أنها تجاوزت العشرين ربيعًا بقليل، كانت ترتدي قبعة لبرودة الجو، ومعطفًا من الجلد خلعته بمجرد جلوسها، ما كان يُميزها حقًّا هو عيناها -إن لم تكن عدستاها- الرماديتان، لم تكد تقعد حتى أدارَ معها صديقي أحاديثَه التي عادةً ما تجبِرُ سامعَها على الضحك أو حتى الاكتفاء بالابتسام.

أما مَن جلستْ بجانبي فكانت بيضاءَ، جميلةً، عيناها سوداوان، تركت شعرها حُرًّا طليقًا رغم البرد، هي الأخرى كانت ترتدي معطفًا صوفيًّا خلعتْه قبل أن تجلسَ، وجهُها قال إنها لم تتجاوز العشرين بعد، أول ما فعلَته أن طلبت من صديقي -باعتباره صاحب الدعوة- أن يأمرَ لها بعشاءٍ لأنها جائعة جدًّا..

ثم طلبت سيجارة لتدخنها، فناولها صديقي علبة سجائره، فأخذت واحدة وأشعلتها، ووضعتْ أمامها العُلبة، وجدتُّ نفسي أجلسُ دون كلامٍ فأردتُّ أن أقولَ شيئًا حتى لا أكون شاذًّا وغريبًا بين هؤلاء..

سألتُها عن دراستها، قالت إنها ما زالت في المرحلة الإعدادية، أبديتُ دهشتي، فبادرتني وقالت إنها تركت الدراسة لفترة ثم عادت إليها مرة

أخرى، رأيت أنه من الأفضل أن أغلقَ باب الحوارِ في هذا الموضوع حتى لا أُسببَ حرجًا لها.

أتى النادلُ بالعشاء..

انهمكَت الفتاة القاصرة في تناوله، وجعلتُ أختلسُ النظرَ إليها وهي تأكل..

لم تكذب حينما قالت إنها جائعة جدًّا، فقد كانت تأكل بكِلتا يديها، ولم تنطق بكلمةٍ واحدةٍ حتى انتهت من طعامِها، وأعقبته بكوبٍ كبيرٍ من الماء..

تملَّكني إحساسٌ بالشفقة عليها، ولا أدري لمَ جاءني هذا الإحساسُ!

ألصغرِ سنِّها؟

أم أسلوب تناولها للطعام؟

أم البراءة التي في وجهها والتي تُناقضُ تصرفاتها؟!

وبينما كان صديقي مستمرًا في أحاديثه مع فتاته ووجهها لم يكف عن الضحك..

كنت أنا غارقًا في بحر خواطري..

والفتاة القاصرة أخذت تتمايل مع الموسيقى وتحرك شفتيها تتغنى، وفي يدها سيجارة تدخنها..

أخذتُ أحاول أن أحادثها ونجحتُ في ذلك، وكان بداخلي شعور غريب، فهذه هي أول مرة أحادثُ فيها فتاةً أراها لأول مرة وبِطلاقة لم أحادث بها أقرب أصدقائي، وزاد ذلك الشعور غرابة أنها كانت تضحك من بعض عباراتي التي كنت أقولها للآخرين على سبيل المزاح فلا يضحكون، وعُدت أتساءل..

أهي البراءة؟

أم هي تُجاريني حتى لا أشعرُ بالملل؟

أم هي اعتادت أن تفعل ذلك مع كل من تجالسهم؟

لا أدري.

مرَّ الوقتُ بسرعة، نظرَت الكبرى في ساعتها فوجدَتْها قد تعدَّتْ منتصفَ الليلِ بساعتين، طلبتْ من صديقي أن ننتقلَ إلى بيته لنُكملَ ليلتنا لأن الوقت قد تأخر، ولمَّا أخبرها صديقي أنه ما زال أمامنا وقتٌ زادَ انزعاجها وأحسَّتْ أننا لن نذهبَ وأنَّ هنا آخر ليلتنا، فقالت:

"سيصعب علينا الرجوع في هذا الوقت المتأخر من الليل، فإمَّا أن نذهبَ وإمَّا سنضطَّرُّ إلى تركِكما!".

ولأن صديقي لم يكن ناويًا أن يأخذهما إلى بيته فقد اختلق عذرًا -حتى لا تهتز صورته في أعينهما- وعندها ثارت القاصرة لأنه بذلك قد أضاع عليهما الليلة وكان من الممكن أن ينتفعا من غيره، أما هو فلا هو أتمَّ

الليلة بأجرِها، ولا هو تركهما من أول الليل حتى يقعا على صيد أسمن منه، ثم طلبتْ منه أن يُعطيها مالًا حتى تُعطيَه لأمِّها في الصباحِ عندما تطالبُها بأجرِ تلك الليلة، فأعطاهما صديقي مبلغًا يسيرًا.

وللمرة الأخيرة في تلك الليلة ينتابني شعورٌ أغربُ من سوابقه، أمٌّ تطالب ابنتَها بأجرِ ليلتها! ولم تعطِ الكبرى لي الفرصة هذه المرة كي أسبحَ في ذلك الشعورِ، فقد مالتْ على أذني وطلبتْ منّي أن أقومَ بتوصيلهما لأنهما لن تستطيعا أن تسيرا في ذلك الوقت المتأخر بمفردهما -ليس خوفًا على نفسيهما- ولكن خوفًا من أي رجل شرطة يعترض طريقهما، وقبل أن أجيبَها بادرها صديقي بأنني سأنصرف أنا وهو الآن لأن الوقت قد تأخر علينا أيضًا.

انصرفت الكبرى، وفي إثرها القاصرة وهي حزينة، وحتى الآن، ما زلتُ أفكر في سبب حزنها!

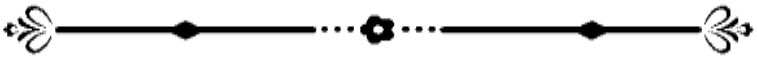

(11)

هي موقنة تمام اليقين وجميع من حولها أيضًا موقنون أنها ليست على أدنى مستويات الجمال الأنثوي المتعارف عليه..

لكنها تعيش لحظات مختلفة، بأحاسيس مختلفة، مخالفة لما اتفق عليه.

الدميمـة الفاتنـة

الصورةُ في المرآةِ لوجهٍ هجَره الجمالُ، وحلَّ محله القبحُ والدمامةُ..
وعينتين بدتا كأنهما ثقبان غائران تحفُّهما الأشواك..
وشعرٍ كان المسدُ أكثر طراوة منه..
أخذت صاحبةُ الوجه تبكي وتبكي إلى أن كلّتْ وخدَعَها النعاسُ وتسلَّلَ ليبيتَ في الثقبين، وذهبتْ هي في نومِها الحـزين.

استيقظتْ من نومِها..
أحسّتْ أن الدُّنيا من حولِها تضحكُ لها..
وطلعَ الصباحُ على أجمل حواء شهدتْها المعمورة..
وانفتحت أروعُ عينين فبدتا كأنَّهما حبتان من خرزٍ أخضر تسبحان في طبقٍ من اللبن، يعلوهما جسرٌ من الشعرِ الناعمِ، وامتدَّتْ أهدابُها كأنَّها من ريشِ الطاووسِ، وانفرش شعرُها على الفراشِ كأنَّه بساطٌ من خيوطِ الحريرِ يُغلِّفُها الذهبُ.

قامتْ في دَعَةٍ وخُمولٍ..
نادتْ وصيفتَها لتختارَ لها أفضلَ ثيابَها..

أمسكت الوصيفةُ الشقراءُ بأنواع شتَّى من العطورِ، وأخذتْ تنثرُ شذاها على جسدِ مولاتها التي بدت كزهرةٍ من زهورِ الربيعِ ينجذبُ إليها كلُّ من يشمُّ رائحتهَـا.

خرجتْ تأرنُ كما يأرنُ المُهرُ الصغيرُ تتنسَّمُ هواءَ الصباحِ، وأخذتْ تصعدُ الرُّبا، وترمحُ في الروابي، وترتشفُ قطراتِ الماءِ من الغدير بشفتين نضرتين، وتُمَتع عينيها باللون الأخضر من تحتها والأزرق من فوقها، ونورُ الشمسِ قد اختلطَ بألوان الزهرِ فغدا النهارُ كأنَّه ليلة مقمـرة.

أجهدها الركضُ والسيرُ، حتى رقدتْ على الحشائشِ الناعمةِ تحت أيكةٍ وارفةِ الظلالِ وأغمضتْ عينيها الجميلتين، وبينما هي كذلك، أحسَّت بصوتٍ آتٍ من مكان بعيد يُناديها:

"هيا استيقظي يا بُنيتي، لقد غمرَ الضياءُ غرفتك، وأنت ما زلت تنامين في فراشـك".

(12)

عندما يُجبَر الإنسان على المغادرة
يشعر باغتراب غامر يملأ عليه نفسه وحياته..
مهما حاول العيش بعيدًا في أي مكان..

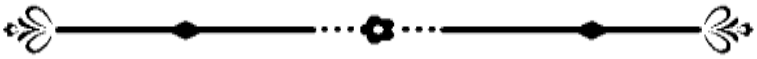

العَــودة

لم تكن تلك المرة الأولى التي يذهبُ فيها إلى هناك..

ولكن شعوره هذه المرة مختلف..

فقد كانت زياراته في المرات السابقة خاطفة ومحددة.

ما زال يذكرُ ذلك اليوم الذي اضطُّر فيه إلى تركها والرحيل عنها..

لم يكن وحده الذي رحل عنها، فكل من يعرفهم رحلوا معه، ورحل أيضًا الكثيرُ الذين لا يعرفهم.

كان ذلك منذ سنوات..

منذ ذلك اليوم عزمَ على أن يعودَ إليها..

في كل زيارةٍ من زياراتِه السريعةِ لها كان يُلقي نظرةً عليها ليجدَها قد تغيرت كثيرًا عما تركها، ولأن وقت زيارته كان قصيرًا ومشغولًا عن آخره بإحدى المهام المسند إليه تنفيذُها، كان يعجز أن يقول لها كل ما يكون قد أعدَّه لها.

وها هو اليوم قد عاد إليها..

شعر أنه يريد أن يقول لها كثيرًا عمَّا عاناه في البعد عنها، وعمَّا بذله في سبيل العودة إليها..

لكن لسانه عجز عن حمل كل ما كان يود أن يقوله، فاكتفى بالنظر إليها..

أحسَّ بنظراتها إليه..

كان الشوق يملؤها..

وكان الحزن مع الفرح خليطًا من مشاعر بثتها إليه..

الحزنُ على فراقه طوال تلك السنوات..

والحزنُ على ما عانته في غيابه عنها..

والفرح بعودته إليها..

والفرح بعودتها إليه.

نظر حوله فرأى رفاقه وكأنهم كانوا مثله، تذكر كيف قضوا كلُّهم السنوات الماضية، وكيف كانت خطاهم على طريق العودةِ إليها.

مِن رفاقه مَن كان من أهلها، ومنهم من كان غريبًا عنها..

ولكنه عندما نظر إليهم رأى شعورهم واحد..

إحساسهم واحد..

فهي جزء من كل..

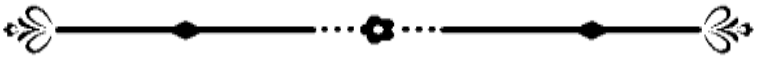

وابن كل جزء هو ابن الكل..
ويصير كل جزء مِلكًا للكل.

ألسنة اللهب ما زالت مشتعلة..
الدخان ما زال في الأنوف..
أصوات المدافع ما زالت في آذان كل من يقف على أرض سيناء..
وفي غمرة الانتصار كان المنظر يوحي بأن سيناء قد أعدَّت مهرجانًا كبيرًا لاستقبال أبنائها العائدين إليها، واختلطت أصوات المدافع وأزيز الطائرات بأصوات الجنود البواسل الذين لم يجدوا وسيلةً للتعبير عن فرحتهم سوى تلك الصيحة الخالدة:
"الله أكبر.. الله أكبر".

محتويات الكتاب

إهداء..... 5

المقدمة..... 7

انـــفـــجـــــار..... 11

العجوز والهمـوم 18

صـورة و دمعـة..... 21

دمـوع القمـر 25

لا تتـرُكني وترحـل..... 29

لقـاءٌ مختلـفٌ 34

يـومُ أعـمـى..... 39

كبـشُ الفـداء..... 44

الـصـنـدوق..... 48

القـاصـرة..... 52

الدميمـة الفاتنـة..... 59

العَــودة 62

محتويات الكتاب 65

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع